التفسير : ظاهرة بيانية، هبطت مع التنزيل

عبد القادر منصور[*]

Özet ▸ Tefsir, Kur'an'ın beyanıyla alakalı bir olgudur. O, kur'an vahyinin metodudur. Tefsir, sonradan ortaya çıkmış beyani bir olgu değildir. Çünkü Kur'an, Arapların kendi aralarında konuştukları beyan tiplemelerine uygun bir üslupla inmiştir. Araplar bazen mücmel konuşur, daha sonra yanlış anlaşılmaması için bu mücmelliği tefsir ederlerdi. Bu, hitabı çeşitlendirme hususunda Kur'an üslubunun ne kadar aktif olduğuna açık bir işarettir. Böylece Kur'an'ın hitabı, onu mütala eden kimsenin nazarında donuk bir hal almaz, aksine muhatabın aklını ve kalbini cezbeden bir üsluba dönüşür. Tefsir, Arap dilinin beyan üsluplarından biri olarak, hitaba sihirli bir güzellik katar, akılları alıp bir hayat düsturu olarak kendisine iman etmeye yöneltir ve Allah'ın kulları üzerindeki nimetini izhar eder. Bundan dolayı bizim, Kur'an'ı tefsir ederken, Kur'an'ın sırlarına ve eşsiz hazinelerine ulaşmak ve hitabını doğru anlayıp kabul etmede aklımıza estiği gibi değil, nurunu takip ettiğimiz fikri bir metodumuz vardır. Benim bu çalışmam, ortaya yeni bir fikir ve üslup koyan ve benden önce hiç kimsenin değinmediği bir çalışmadır. Cenab-ı Allahtan bu çalışmamı kabul etmesini ve bana fayda vermesini dilerim. Zira o, duaları kabul edendir.

Anahtar Kelimeler: Tefsir, Beyân, Zâhir, Vahiy, Hitâb.

ملخّصُ البحثِ ◂ إن التفسير ظاهرة قرآنية بيانية، وهو منهج الوحي القرآني؛ ولم يكن بدعا في البيان، لأن التنزيل هبط بأسلوب ينسجم مع أنماط البيان العربية، التي كانت العرب تستعمله في محادثاتها؛ فتجمل أحياناً، ثم تفسر ما أجملت؛ حتى لا يكون ثمة لبس في الفهم؛ وهذا مؤشر واضح على حركية الأسلوب القرآني في تلوين الخطاب؛ لكيلا يبقى جامداً في نظر مطالعيه؛ وهو نوع جذب للفكر والقلب- لدى المخاطب والمستمع.

والتفسير، أسلوب بياني، من أساليب العربية، يضفي على الخطاب جمالاً ساحراً؛ فيأخذ بالألباب ، ويستميل العقول للإيمان به -منهجا للحياة-ويظهر منة الله على خلقه.

ومن ثم، كان لنا -نحن البشر- منهجاً فكرياً، نسير بنوره في العملية البيانية؛ حتى لا نخبط خبط عشواء في فهم الخطاب وتقبله؛ ويفتح الباب أمام ذوي الفكر والعقل أن يتعاطوه؛ بغية الوصول إلى كنوزه وأسراره. وبحثي هذا، لهو بحث جديد، لم يسبقني إليه أحد، فهو يحمل فكرة جديدة، وأسلوبا جديداً . فالله أسأل أن ينفع به؛ ويتقبله مني؛ إنه سميع الدعاء .

[*] Eskişehir Osmangazi Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü, Öğr. Gör. Dr.

نشأة التفسير

وظاهرة التفسير البيانية، لم تهبط فنياً مع التنزيل؛ ولم تولد مفصَّلة كما هي عليه اليوم؛ وإنما كانت ذات أطوار؛ كل طور يختلف عن الآخر- شكلاً ومضموناً- وكعادة الكتابة في تاريخ كل فن، أن ينطلق الباحث من نقطة المنشأ، وبداية الظهور.

وظاهرة التفسير-واقعاً-كانت نشأتها مع التنزيل؛ و-يومئذ-كان رسول الله ε في غار(حراء)؛فهبط عليه جبريل بأُولى آيات القرآن-وهي خمس- ومعها تفسير التبيين؛ فقال له جبريل-مبلغاً-عن ربه:{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }فسرت بالتواصل، بـ{خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ }.

وخص الإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق؛ لأن التنزيل موجه إليه-منهجا لحياته؛ وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد: الذي خلق الإنسان-كما قال:{الرحمن عَلَّمَ القرءان خَلَقَ الإنسان[1]}فقيل:{الذى خَلَقَ }مبهماً، ثم فسره بقوله: {خَلَقَ الإنسان}تفخيماً لخلق الإنسان، ودلالة على عجيب فطرته[2] "

و{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ}فسرت بالتواصل، بـ{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ[3]}. فـ{ وَرَبُّكَ الاكرم}كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لإزاحةِ ما بينَهُ -عليه السَّلامُ- منَ العُذرِ؛ بقولِه- عليهِ السَّلامُ :«مَا أنَا بقارىءٍ » يريدُ :أنَّ القراءةَ شأنُ منْ يكتبُ ويقرأُ ؛وأنَا أُميٌّ؟

[1] [الرحمن : 1 - 2 - 3] .

[2] الكشاف(7/ 311)

[3] [العلق: 1 - 5]

فقيلَ لَهُ: وربُّكَ الذي أمركَ بالقراءةِ -مبتدئاً باسمِه-هو الأكرمُ:{الذى عَلَّمَ بالقلم}أي: علّمَ ما علّمَ بواسطةِ القلمِ، لا غيرِه؛ فمَن علَّم القارىءَ بواسطةِ الكتابةِ، والقلمِ؛ يعلمكَ بدونِهما.

وقولُه تعالَى:{عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ }بدلُ اشتمالٍ منْ(عَلَّمَ بالقلمِ). أي: علَّمه بهِ، وبدونِه، منَ الأمورِ الكليةِ، والجزئيةِ، والجليةِ ، والخفيةِ، مَا لَمْ يخطرُ ببالِه[1] "

وكانت هذه الحال، مفاجأة له،لا سابقة لها في حياته؛ لكنها فعَّلت فيه جاهزية تلقي الوحي من السماء؛ ولما غادر جبريل المكان صاعداً إلى السماء؛ هبط النبي -عائداً - من حراء إلى بيته بمكة؛ حتى إذا وصل، قابلته السيدة خديجة؛ فبادرها بقوله:(زملوني... زملوني). وفتر الوحي مدةً[2]. ففي الحديث:" بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء؛ فرفعت بصري؛ فإذا الملك الذي جاءني بحراء ؛ جالس على كرسي بين السماء والأرض؛ فرعبت منه؛ فرجعت؛ فقلت: "زملوني؛ زملوني" .

فأنزل الله {يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر* والرجز فاهجر[3] } فحميَ الوحيُ وتتابع[4] "

---

[1] تفسير أبي السعود (7/ 35)

[2] تضاربت الأقوال في تحديدها.

[3][المدثر : 1-5]

[4]أخرجه البخاري(4)ومسلم(161)والترمذي (3325) وقال: حسن صحيح . والنسائي في الكبرى (11631) . وأحمد (14523)وأبو عانة(329) والحاكم (2993) وقال : صحيح على شرط الشيخين . والبيهقي (17500).

ثم تواصل التنزيل، دونما انقطاع، حتى تكامل؛ وختم بقوله تعالى:{وَاتَّقُوا يَوْما لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}.[1]

وفي تحديد المدة ما بين نزولها، وارتقاء رسول الله ε إلى الملأ الأعلى؛ روايتان:

1-عن ابن عباس؛ قال:" آخر آية نزلت{واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله}نزلت بمنى؛ وكان بين نزولها وبين موت النبي ε **أحد وثمانون يوماً** .[2] "

2-وعن سعيد بن جبير؛ قال: آخر ما نزل من القرآن كله { واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله } الآية . عاش النبي ε بعد نزول هذه الآية، **تسع ليال**؛ ثم مات يوم الاثنين؛ لليلتين خلتا، من ربيع الأوّل[3] "

***

طابع التنزيل

وتوزع التنزيل في صدر الإسلام على عهدين مشهورين:(المكي والمدني)؛ولكل منهما طابع يميزه:

الطابع المكي:

والبيئة الحاضنة له؛ هي مكة؛ فنهج نسق المحادثة والتخاطب في ترسيخ عقيدة التوحيد، ونبذ الشرك، والتزوير؛ لكن الآيات الأولى، كانت واضحة في تبيين المراد؛ لا

[1] [البقرة: 48]

[2] أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن أبي صالح الدر المنثور (2/ 251)

[3] أخرجه ابن أبي حاتم الدر المنثور (2/ 251)

تفتقر إلى تفسير؛ والعرب يفهمون مرادات الكلام بسليقتهم اللغوية؛ إلاّ كلمات قليلة؛ فمنها ما قد نزل تفسيرها معه؛ لبيان وظائف بلاغية، وتاريخية، وعقدية، وأدبية؛ ومنها مالم ينزل؛ فترك للمتفكرين والباحثين ...

الطابع المدني:

والبيئة الحاضن له؛ طيبة الطيبة؛ فحمل التنزيل مبادئ التشريع لإدارة حركة الحياة؛ حتى إذا تناول جوانب الحياة المختلفة؛ بدا فيها بعض الغموض، في وصول فهم الخطاب لدى بعضهم؛ إذ ما كانوا يجرؤون على تفسير القرآن؛ وهو ε بين أظهرهم؛ و - عندئذ-اضطر المشرّع إلى تفعيل عملية التفسير-مع التنزيل، أوبعده.

التفسير: ظاهرة ممنهجة:

والتفسير؛ ظاهرة حركية في أسلوب البيان؛ درج عليها العرب في أنماط بيانهم؛ ثم غدت فناً، مستقلاً؛ رُسمت له القواعد؛ وخُطت له المناهج؛ وحدت له التعاريف؛ وكان الفضل في ذلك كله يعود إلى القرآن الكريم.

تعريفه:

هو-كما قلت في كتابي علوم القرآن- كلمة أضيفت إلى علم؛ وهي إضافة محدثة؛ لم تكن من ذي قبل؛ لكنّ الضرورة الفنية، صيّرتها عِلماً؛ وجذر هذه المفردة واشتقاقها، يشي بمهمتها. ولدى الرجوع إلى قواميس اللغة العربية؛ فإننا لنجدها قد اشتقت من الفسر؛ ومعناه: الإبانة والكشف، أو كشف المغطّى. وفي بعض المعاجم

غايرت ما بين المشتق والمشتق منه؛ فقالت: الفسر: كشف المغطّى. والتفسير: كشف المراد من اللفظ المشكل.

والخلاصة في هذا: أنّ مفردة التفسير استعملت في اللغة؛ بمعنى الكشف الحسّي؛ ثم بمعنى الكشف عن المعاني الكلامية؛ وكثر في الأخير وشاع؛ وكان انتزاع كلمة التفسير، وإقحامها في(عنونة علم) يناط بكتاب الله تعالى؛ لخطوة جريئة؛ لكنّ القصد الحسن منها، يجعلها ضرورة خدمية للقرآن الكريم؛ وتبسيطا لمعانيه السامية؛ وإبرازاً لمعجزاته الخالدة[1].

ولما تكاملت الفكرة حول هذه الظاهرة-كعِلم-حُدَّت له التعاريف المناطة به ؛وقد اصطلح علماء التفسير في وضعها- كعلم- على أنها ترمز على «العلم الذي يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمّد ε وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه".

وفي كتاب الكليات: التفسير: "الاستبانة. والكشف. والعبارة عن الشيء بلفظ أسهل وأيسر من لفظ الأصل" . وفي الاصطلاح: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبة ومعانيها التركيبية. وتفسير الشيء لاحق به؛ ومتمم له؛ وجار مجرى بعض أجزائه[2]".

وهناك تعاريف أخرى؛ في النهاية تدور في فلك هدف واحد؛ وهو "علم يبحث عن مراد الله تعالى؛ بقدر الطّاقة البشريّة[3] ".

---

[1] موسوعة علوم القرآن (ص: 172)

[2] كتاب الكليات - (ج 1 / ص 260)

[3] من كتابي علوم القرآن (ص: 173)

تأويل وتفسير:

(تأويل - وتفسير) لفظان؛ ما داما قد ذكرا على ألسنة المعنيين بهذا الشأن؛ فإنه يتطلب منّا أن نتعرف على معنى كلّ منهما؛ والوقوف على الفارق بينهما؛ ونضطر في استجلاء معانيهما أن نردّهما إلى جذرهما؛ والمهمّة التي وضعا من أجلها.

فالتأويل لغة: مأخوذ من الرجوع. وهو من آل إليه أولا، ومآلا. بمعنى: رجع. وعنه: ارتدّ. وأوّل الكلام وتأوّله: تدبّره وقدّره، وفسّره. واصطلح علماء السلف على معنى له؛ فقيل: «هو تفسير الكلام، وبيان معناه؛ سواء أكان موافقا للظاهر، أم مخالفا له ».

وبناء عليه: فالتأويل والتفسير متقاربان؛ واستعمل كل منهما مكان الآخر.

لكنّ المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين، والمحدثين، قد صرفوا لفظ التأويل على: **«أنه صرف اللفظ عن معناه الراجح. إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به»**.

وبهذا؛ يكون اللفظان متباينين من جهة، دون جهة؛ فيكون التفسير أعمّ من التأويل.

ومنهم من علق التفسير بالرواية؛ والتأويل بالدراية؛ وعليه؛ فهما متباينان تباينا كاملاً؛ وتبقى المسألة اجتهاديّة الوضع، والاستعمال؛ ولنا: أن نختار الرأي الأخير، فهوأدنى لصحة التعامل مع النص القرآني المقدّس. فنقول: «إنّ التفسير: ما كان راجعا إلى الرواية. والتأويل: ما كان راجعا إلى الدراية. لأنّ التفسير معناه (كشف وبيان)؛والكشف عن مراد الله تعالى؛ لا يكون إلا بالنقل الصحيح ،عن رسول اللهε أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي؛ وأحاطوا بالحوادث والوقائع -علماً كبيراً- فإن أشكل عليهم معنى له، رجعوا إلى رسول الله ε فسألوه عنه؛ فأجابهم. أما

التأويل: فيلحظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ؛ وفق الدليل والبرهان؛ وإعمال العقل في تجلية المغطّى؛ واستخدام مدلولات اللفظ في العربية، ومراعاة السياق والسباق، وغير ذلك من لوازم المعرفة؛ ويعتمد في هذا كله على ملكة الاجتهاد[1] "

قيمة علم التفسير:

وعلم التفسير يعتبر أحقّ العلوم الإسلامية بالدراسة والتدبّر، وكشف المعاني، والأسرار، كي تزيد في إيمان العبد، وتوسّع له مداركه؛ وجدير بالمؤمن أن يجري وراء استجلائها، ليفقه خطاب ربّه، وينهل من معين الحياة الطيبة، فهو- بحقّ- أب لسائر العلوم، وسائرها دونه.

ذلك؛ لأنه المصدر التشريعي الأول؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه الحاوي لكلّ وسائل السعادة، الهادي إلى سواء السبيل، المحكم في قوانينه، وتشاريعه؛ قال الله تعالى:**{كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[2]}.**

ولم تكن الأهمية له متأخرة؛ بل وجدت مع أوّل تنزيلاته؛ فأعلن القرآن: أنّ الضامن لحفظه منزّله هو الله-سبحانه-وذلك؛ حين بدأ التنزيل على رسول الله ﷺبواسطة جبريل عليه السلام، تلقاه رسول الله ﷺبحب وتلهف؛ ومن ثمّ؛ صار يسابقه في قراءته-حرصاً أن ينفلت بعض منه-فهبط جبريل عليه السلام بأمر الله أن لا يعجل، فمن أنزله يحفظِّه إياه، وييسّر أداءه؛ ويبين مجمله؛ قال الله تعالى:**{لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا**

[1] من كتابي علوم القرآن (ص: 175)

[2] هود (1).

بَيانَهُ[1]} فبيانه تكفل الله به؛ ثم كلف النبي محمداε ببيانه – مفصلا؛ وزيادة -قال - عز من قائل:**{وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [2].}.**

هذا؛ ولم يقف الأمر ببيان معانيه عند رسول الله ε وحده؛ وإنما تعدّاه منذ البداية إلى صحابته(ر) فهم قد كلّفوا بالتفكير؛ لاستجلاء معانيه وأسراره؛ ثم تعدّاه - أخيراً- إلى دعوة الأمّة للتدبّر في آياته؛ والتفتيش عن كنوزه؛ حتى يوم الدين؛ قال الله تعالى :**{كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ.[3]}.** ولم يقتصر الخطاب الرباني على الدعوة للتفكر في آياته؛ بل تعداه بخطاب قرآني آخر؛ بأسلوب التبكيت، لمن أعرض، وأدبر، عن ذكره؛ فقال- عز من قائل:**{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها.[4]}** وتجاوب الصحابة مع النداء؛ فحرصوا على معرفة معانيه؛ والوقوف على أسراره؛ فرسموا لأنفسهم نهجا وئيداً؛ينطوي على عبقريتهم، وسداد رأيهم؛ وتبعهم في ذلك التابعون؛ فنهجوا نهجهم.

***

أطوار التدرج في التفسير الفني:

هذا؛ ولم يصل التفسير إلى هذه الصورة التي نجدها -الآن- من مؤلفات وتصانيف وبأساليب شتى من البيان؛ إلاّ بعد مروره بأطوار كثيرة؛ كل طور منها قد أخذ

---

[1] القيامة (16 - 19).

[2] النحل (44).

[3] [ص: 29]

[4] [محمد: 24]

طابعاً مميزاً؛ فكان رسول الله ε يبلغه لصحابته -وهم عرب خُلَّصٌ- فيفهمونه بسليقتهم؛ فإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات؛ سألوا رسول الله ε عنها؛ فيُفَسِّرُها لهم. فكان المفسرَ الأول؛ والشارح لكتاب الله، لغير الألمعي؛ فثَم؛ كانت نشأة التفسير في عصر النبي ε؛حيث بدأ مبكراً ،مترافقاً مع التنزيل؛ وكان هذا أول طور من أطوار التفسير-عند من صنفوا في تاريخ التفسير. لكنني أخالفهم الرأي في هذا.

ذلك؛ لأن الحقيقة -واقعاً-تقول-كما قدمت آنفا: "إن التفسير بدأ مع التنزيل؛ كظاهرة بيانية؛ تنسجم مع الأساليب العربية، فما من آية صاغها الله في قرآنه؛ وأراد أن يصبغها الصبغة التفسيرية؛ إلاَّ أنزل تفسيرها مباشرة ، أو متأخراً. فلم تكن بداية ظهور التفسير، منفصلة عن التنزيل؛ بل رافقته من بداياته؛ واستمرت؛ وكانت ظاهرة حركية من أساليب البيان؛ رسم خطوطها القرآن - زياد في البلاغة والإعجاز؛ ثم نهج رسول اللهε النهج ذاته ؛في البيان والتبيين؛ فكان قبسا من قبسه. لذا؛ أرى أن تفسير التنزيل هو الطور الأول في هذه العملية؛ والتفسير النبوي، هو الطور الثاني؛ وعلى ذلك سأخطو بخطواتي وفق هذا التصنيف.

الطور الأول

التفسير القرآني- أو تفسير التنزيل

ولم يكن التفسير النبوي بدعاً في البيان- كما قدمت-وإنما هو منهج الوحي القرآني؛ وظاهرة قرآنية بيانية. ذلك؛ لأن التنزيل هبط بأسلوب ينسجم مع أنماط البيان العربية، التي كانت العرب تستعمله في محادثاتها؛ فتجمل أحياناً، ثم تفسر ما

أجملت؛ حتى لا يكون ثمة لبس في الفهم؛ وهذا مؤشر واضح على حركية الأسلوب القرآني في تلوين الخطاب؛ لكيلا يبقى جامداً في نظر مطالعيه؛ وهو نوع جذب للفكر والقلب- لدى المخاطب والمستمع.

ويدور في ذاكرة الثاقفين-سؤال: لماذا لا ينزل النص المفسِّر مع النص المفسَّر- والله يعلم من خلق ؟ هل في ذلك شبهة في تنزيل الخالق لكتابه؟ فإن كان كذلك؛ فهذا يجانب المعتقد بالذات الإلهية؛ فإذاً؛ لم جاء القرآن بهذا؟. ويجاب على هذا بأمرين اثنين:

1-لأن التفسير، هو أسلوب بياني، من أساليب العربية، يضفي على الخطاب جمالاً ساحراً؛ فيأخذ بالألباب ، ويستميل العقول للإيمان به -منهجا للحياة-ويظهر منة الله على خلقه.

2-حتى يضع لنا -نحن البشر- أسساً عقلية، نسير بنورها في العملية التفسيرية؛ فلا نخبط خبط عشواء في استعمال هذا الأسلوب البياني؛ ومن ثم؛ يكون قد علّمنا القرآن: كيف نفسر؟ وفتح الباب أمام ذوي الفكر والعقل أن يتعاطوه؛ بغية الوصول إلى كنوزه وأسراره. وأمثلته مبثوثة فيما بين دفتي المصحف؛ تتخلل بعض سوره؛ ويشهد على ذلك أمثلة سنستخرجها من بعض الآيات-لاحقاً.

التفسير البديعي

حد ه: قال أهل البيان في التفسير القرآني: **"هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء ؛ فيؤتى بما يزيله ويفسره[1]. "** ومن ثم؛ كان له قانون في القراءة؛ فقال ابن جني:" ومتى كانت الجملة تفسيراً؛ لم يحسن الوقف على ما قبلها دونها؛ لأن تفسير الشيء لا حق به؛ ومتمم له؛ وجار مجرى بعض أجزائه[2] "

هذا؛ وقد تميز تفسير التنزيل، عما سواه؛ بسمة خاصة؛ قد عليها أطلق أبو البقاء[3] اسم(التفسير البديعي). فقال: والتفسير البديعي : " هو أن يأتي المتكلم في أول كلامه بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته دون أن يفسره"

الفرق بين التفسير الإيضاح:

وثمة كلمتان؛ قد يُظن أنهما يفيدان معنى واحدا؛ وهما:(التفسير الإيضاح)؛ وكلاهما أسلوب بياني، حركي، في تناول الخطاب؛ وقد ضم القرآن الكريم شواهد عليهما؛ لكنه عند التدقيق في معرفة مهمتهما؛ يستبين لنا: أنهما مختلفات في أداء المهمة البيانية. وقد فرق أبو البقاء بينهما؛ فقال: **والفرق بينه وبين الإيضاح:**

---

[1] الإتقان في علوم القرآن - (ج 2 / ص 193)

[2] الإتقان في علوم القرآن - (ج 2 / ص 194)

[3] **أبو البقاء:** (1094 هـ = 1683 م)أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي . أبو البقاء: صاحب (الكليات) كان من قضاة الحنفية. ولد في(كفا) بالقرم بتركيا. عاش فيها. وولي القضاء في (كفه) وبالقدس. وببغداد. وفي وفاته روايتان: فقيل: توفي وهو قاض بالقدس. وقيل: عاد إلى استانبول فتوفي بها، ودفن في تربة خالد. وله كتب أخرى بالتركية. الأعلام للزركلي(2/ 38)معجم المؤلفين(3/ 31)عثمانلي مؤلفلري 230 وعنه وفاته. وهدية العارفين 229 وفيه وفاته قاضيا بالقدس. وإيضاح المكنون 2: 380 وفيه وفاته سنة 1093 ومعجم المطبوعات 293وفيه وفاته سنة 1095.

" أن التفسير تفصيل الإجمال؛ والإيضاح رفع الإشكال[1] "

ولابن أبي الأصبع[2]-أيضاً- تفريق بين التفسير؛ وبين الإيضاح؛ وهو متقدم على الكفوي :بأن التفسير البديعي هو تفصيل المجمل؛ مثل:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

أما الإيضاح: فخاص برفع ما يظهر في الكلام من لبس، وإشكال فيه-لفتاً للذهن عند سماع الكلام."

قطف الثمرة:

وكلا النوعين، أسلوب بياني حركي؛ وله وظائف في جمالية الخطاب؛ ومن ثم؛ قال السيوطي:" قال أهل البيان: إذا أردت أن تبهم؛ ثم توضح؛ فإنك تطنب؛ إما رؤية المعنى في صورتين مختلفتين:(الإبهام والإيضاح)؛أو لتمكن المعنى في النفس، تمكنا زائداً، لوقوعه بعد الطلب؛ فإنه أعز من المنساق بلا تعب؛ أو لتكمل لذة العلم به؛ فإن الشيء إذا علم من وجه ما؛ تشوقت النفس للعلم به-من باقي وجوهه-وتألمت؛ فإذا

[1] كتاب الكليات .لأبي البقاء الكفوي (ص: 396)

[2] **عبد العظيم بن أبي الأصبع** (589 - 654 هـ) (1193 - 1256 م) عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن المصري. المعروف بابن أبي الإصبع(زكي الدين، أبو محمد) أديب، شاعر. ولد بمصر، وتوفي بها في 13 شوال . من آثاره: بدائع القرآن، الكواكب الدرية في نظم القواعد الدينية، تحرير التحبير في البديع، الخواطر السوانح في أسرار الفواتح. معجم المؤلفين(5/ 265).

حصل العلم من بقية الوجوه؛ كانت لذته أشد من علمه، من جميع وجوهه، دفعة واحدة[1] "

الإيضاح في القرآن:

والإيضاح: ورد في كتاب الله العزيز مرات؛ وكان له دلالات حكيمة؛ اقتضاها المقام.

التفسيروالبيان:

فمن أمثلته**{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [2]}**فإن (اشرح) يفيد طلب شرح شيء ما؛ و(صدري) يفيد تفسيره وبيانه. وكذلك**{وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي[3]}**؛والمقام؛ يقتضي التأكيد؛ للإرسال المؤذن بتلقي الشدائد.

و{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ[4]}.فإن المقام يقتضي التأكيد؛لأنه مقام امتنان وتفخيم. وكذا: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ[5]}.

ومنه التفصيل بعد الإجمال:

1-نحو:{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ[1]}؛وعكسه كقوله:{ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا

---

[1] الإتقان (2/ 192)

[2] [طه: 25]

[3] [طه: 26]

[4] [الشرح: 1]

[5] [الحجر: 66]

رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ[2]}. فقد أعيد ذكر{العشرة}لرفع توهم أن(الواو)في{وسبعة}بمعنى(أو)؛فتكون الثلاثة داخلة فيها كما في قوله:{خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ[3]}. ثم قال:{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ[4]...}

فإن من جملتها اليومين المذكورين-أولاً- وليست أربعة غيرهما.

3-ونظيره:{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً[5]}؛فإنه رافع لاحتمال أن تكون تلك العشرة من غير مواعدة؛ وفائدة الوعد بثلاثين-أولاً-ثم بعشر؛ ليتجدد له قرب انقضاء المواعدة؛ ويكون فيه متأهباً مجتمع الرأي؛ حاضر الذهن؛ لأنه لو وعد بالأربعين-أولا-كانت متساوية؛ فلما فصلت؛ استشعرت النفس قرب التمام، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم.

4-ومنه قوله تعالى:{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا[6]...}؛فهذه الآية تتحدث عن نعيم أهل الجنة وطعامهم؛ وأنهم يقولون :كلما يرزقون طعاما{هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ}. لكن كلامهم هذا الذى حكاه الله عنهم، يثير في نفس السامع سؤالاً؛ فحواه:" هل طعام أهل الجنة نوع واحد، يتناولونه في كل وجبة لا يتغير؟ ومتعة الطعام في تنوعه لا في توحده؟! "فلما قال عز وجل:{وَأُتُوا بِهِ

---

[1] [التوبة: 36]

[2] [البقرة: 196].

[3] [فصلت: 9]

[4] [فصلت: 10]

[5] [الأعراف: 142]

[6] [البقرة: 25]

مُتَشابِهاً}ارتفع ذلك السؤال؛ لأن هذه العبارة أفادت أن طعام أهل الجنة، متنوع، مختلف؛ لكنه متشابه؛ فوضح الأمر؛ لذلك كان قوله- سبحانه: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً }إيضاحاً؛ لأنه رفع الإشكال، الذي ثار في الذهن من قولهم:{هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ} وهذا ملمح دقيق لطيف-كما ترى.

5-ومنه قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[1]} فهذا خطاب من الله لليهود، وقت كان القرآن ينزل؛ وهو وقت؛ خلا من أنبياء الله -عز وجل- إلا محمداً ε؛كما أن اليهود الذين خاطبهم القرآن في عصر النزول لم يقتلوا نبيا؛ وإنما الذي قتل الأنبياء هم آباؤهم الأقدمون؛ لذلك كان في قوله تعالى:{**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ**}**إشكال**؟.

وحاصله: أن اليهود في عصر الرسالة المحمدية، لم يكن منهم قتل للأنبياء؛ وإن كان منهم كفر برسالة خاتم النبيين ε. ولكن لما قال الله عقب هذا:{ **مِنْ قَبْلُ** } زال الإشكال واستقام التاريخ على سوقه؛ وظهر: أن الذى كان يقتل الأنبياء؛ هم يهود الأمس؛ لا يهود عصر نزول القرآن؛ وإنما واجه الله بهذه الجريمة غير فاعليها المباشرين؛ وهم يهود عصر الرسالة المحمدية؛ لأنهم راضون بما فعل أسلافهم؛ فصاروا مثلهم في اقتراف هذه الجريمة النكراء.

[1] [البقرة: 91]

6-ومن الإيضاح في القرآن الكريم؛ قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ[1]}لأن في قوله تعالى{وَأُولِي الأَمْرِ} إشكالاً. لأنه يشمل كل ولاة الأمر؛ وإن كانوا من غير المؤمنين. وهذا لم يؤذن به في الإسلام؛ فلما قال عز وجل{مِنْكُمْ} ارتفع الإشكال؛ وحصرت ولاية الأمر في المؤمنين، دون غيرهم من أولياء الأمر والسلاطين.

إذن. فمعنى قوله{مِنْكُمْ}إيضاح كاشف لحقيقة المراد[2]."

أمثلة التفسير:

ما تقدم من أمثلة؛ كانت عن أسلوب الإيضاح؛ أما أمثلة التفسير: فقد جاءت في مواضع عدة من القرآن الكريم؛ وكان معجزاً. فمن معجزة التفسير؛ قوله تعالى:{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[3]}فقوله:{فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ}؛تفسير لقوله :{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ :} و{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ [4]} فقوله:{لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} **تفسير للقيوم** .و{اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [5]}. فقوله : {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} **تفسير**

---

[1] [النساء: 59]

[2] الموسوعة القرآنية المتخصصة (1/ 471)

[3] [النور: 45]

[4] [البقرة: 255]

[5] [الإخلاص: 2 - 4]

للصمد. قال محمد بن كعب القرظي-في قوله سبحانه:**"{اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [1] }، فلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ :تفسير للصمد. وهو في القرآن كثير. [2] "**

4-و{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ: كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [3]}.. تفسير للمثل. ونحو ذلك في القرآن كثير [مما يفسره بعضه بعضا]

وفي الشعر؛ نحو قول ابن الرومي مادحاً:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دَجَون[4] نجومُ

فيها معالم[5] للهدى ومصابح تجلوا الدجى[6] والأخريات رجوم[7]

أنماط تفسير التنزيل

وأسلوب التفسير هذا؛ لهو النمط الذي تحول إلى فن واسع الآفاق؛ وتمنهج منذ بداية التنزيل؛ حتى تنضبط العملية التفسيرية لاستجلاء المعاني؛ واستخراج الأسرار؛ وتموضع في غضون الآيات والسور القرآنية. وهذه المواضع التي أخذت بأطراف القرآن؛ لتمثل طبيعة هذا الطور؛ ولم يفطن لها الباحثون-قديماً، ولا حديثاً -علماً: بأن سلفنا من أهل هذا الشأن، قد نثروا بين أيدينا إشارات من هذا القبيل؛ وكانت بمثابة ومضات يستنير بها الباحثون.

---

[1] [الإخلاص/2، 3].

[2] الإتقان في علوم القرآن - (2 / 194)

[3] [آل عمران: 59]

[4] دجَوْن: أظلمن.

[5] المعالم: جمع معلم وهو ما يستدل به على الطريق.

[6] الدجى: جمع دُجية وهي الظلمة.

[7] الرجوم: الشهب.

ولدى الكتابة عن تاريخه، لم يدرج في مصنفاتهم؛ فبقي مغيباً عن الساحة؛ غير أنني عند النظر في آيات القرآن؛ والمسح لأساليب التنزيل؛ وقفت على أنماط من تفسير التنزيل؛ ولقد خلصت إلى نمطين اثنين:

1- تفسير غِب التنزيل.

2- وتفسير مع التنزيل .

النمط الأول: تفسير غِبّ [1] التنزيل.

وهذا النوع؛ يكون في الموضوع الواحد، وفي السياق يحدث غموض في الفهم-عند بعض المخاطبين-فيلتبس الأمر في معنى حرف؛ لسبب من الأسباب؛ فينزل الوحي القرآني بالتفسير ليزيله. وسأختار منه -هنا-شاهدين اثنين:

الأول: تفسير القرآن لما غام فهمه عن بعض العرب .

ومثاله قوله:**{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ[2]}** فقد فسرت بجملة**{مِنَ الفجر}**؛ودونكم سير الحدث مع الشاهد؛ عن سهل بن سعد قال: أنزلت:{وَكُلُواْ واشربوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ الخيط الأسود}. ولم ينزل{مِنَ الفجر}. فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود؛ فلا يزال يأكل ويشرب؛ حتى يتبين له رؤيتهما . فأنزل

[1] **غِبُّ الأمر.** ومَغبَّته :عاقبته وآخرُه. وغَبُّ الأمرُ : صار إلى آخره .وجئتهُ غِبَّ الأمر. أي : بعده. المحكم والمحيط الأعظم - (5 / 374)

[2] [البقرة: 187]

الله تعالى بعدُ{مِنَ الفجر}فعلموا: إنما يعني الليل والنهار؛ فليس فيه نص على أن الآية - قبل- محتاجة إلى البيان؛ بحيث لا يفهم منها المقصود إلا به؛ وأن تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز؛ لجواز أن يكون الخيطان مشتهرين في المراد منهما؛ إلا أنه صرح بالبيان لما التبس على بعضهم؛ ويؤيد ذلك أنهε وصف من لم يفهم المقصود من الآية- قبل التصريح-بالبلادة؛ ولو كان الأمر موقوفاً على البيان؛ لاستوى فيه الذكي، والبليد. فعن عدي بن حاتم الطائيτ قال: نزلت: **{ حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ }** عمدتُ إلى عِقالٍ أسودَ، وإلى عقالٍ[1] أبيضَ ؛فجعلْتُهما تحت وسادتِي؛ وجعَلْتُ أنظُرُ من اللَّيْل؛ فلا يستبينُ لِي؛ فغدوتُ على رسول الله ε فذكرتُ ذلك له؛ فقال: **«إنَّما ذلكَ سوادُ الليْل وبياضُ النَّهارِ»**. وفي رواية للبخاري قال: **«إنَّ وِسادك[2] لعريضٌ؛ أنْ كان الخيطُ الأبيضُ والخيطُ الأسودُ تحت وِسادك »**. وفي أخرى له قال: قلتُ : يا رسول الله ،ما الخيطُ الأبيضُ، من الخيطِ الأسودِ؟ أهُما الخيطان ؟ ". قال:**" إنكَ لعريضُ[3] القفا. أنْ أبصرتَ الخيطين"** ثم قال: **"لا. بل هما سوادُ الليلِ وبياض النهار[4]".**

---

[1] عِقَال: العقال : الحُبَيْلُ الذي تُشَدُّ به رُكبة البعير لئلا يهرب.

[2] وسادي : الوسادُ والوسادة : المِخَدَّةُ.

[3] **لَعَرِيض**: والمراد بقوله: إنك لعريضُ الوسادة:(إن نومك لعريض).فكَنَّى بالوسادة عن النوم؛ لأن النائم يتوسد. كما يُكنى بالثوب عن البدن، لأن الإنسان يلبسه. وقيل: كنى بالوساد عن موضع الوساد من رأسه وعنقه. يَدلُّ عليه قوله الآخر :«إنك لعريض القفا» وعرضُ القفا: كناية عن السِّمَن الذي يُذهِبُ الفِطْنَة. وقيل: أراد مَنْ أكلَ مع الصبح في صومه: أصبح عريض القفا؛ لأن الصوم لا يُضعفه ولا يؤثر فيه.

[4] صحيح: أخرجه البخاري في الصوم(16: 1)ومسلم في الصوم(8:1)وأبو داود فيه الصوم(17:4) والترمذي في التفسير (3 البقرة : 220). وقال: حسن صحيح (9856/275/7)- تحفة الأشراف.

ونلحظ في هذا الشاهد: أن العملية التفسيرية حدث فيها تداخل بين طورين مختلفين في الطبيعة التفسيرية: **طبيعة إلهية**؛ تمثلها كِلمة{مِنَ الفجر}. **وطبيعة بشرية**؛ تمثلها كِلمة« إنَّما ذلكَ سوادُ الليْل؛ وبياضُ النَّهارِ». وهما وحيان متمايزان من التنزيل-شكلاً ومضموناً.

الثاني : تفسير القرآن باستثناء حالة طارئة عن الطبيعة .

وأمثلة هذا المنحى كثيرة في القرآن؛ وهو جزء من منهجية التفسير القرآني؛ ولسوف يأتي الحديث عنه تحت بند:(حمل العام على الخاص)من بحث منهجية القرآن في التفسير؛ وهنا؛ أقتطف منها مثالاً واحداً؛ يحتضنه قوله تعالى:{لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ)وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرا عَظِيما[1]}. وكان حاضراً -ساعتئذ-من هو ذو حالة استثنائية؛ فقدم سؤالاً في بيان حكم حالته؛ فنزل ما يفسر موضوع السياق في التنزيل؛ حيث أدرجت كِلمة:{غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}تفسيراً لهذا التقرير القرآني؛ حالما طُرح السؤال. فكان التفسير إدراج حكمها-لاحقاً-بأقصر وحدة زمنية؛ حيث لم تبرد حرارة الوحي-بعد-ولم يعرف الحكم -ساعتئذ-إلاَّ بالاستثناء البياني.

ودونكم سير الحدث مع الشاهد. عن زيد بن ثابت τ أن رسول الله أَمْلى عَليَّ:{لا يستوي القاعدُون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله}؛فجاءه ابنُ أُم مكتومٍ، وهو يُمِلُّها عَليَّ؛ فقال :"واللهِ يا رسولَ اللَّهِ؛ لو أَستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ ،وكان أَعمى"

[1] [النساء/95]

فأنزل الله عز وجل على رسول الله ε وفخِذُهُ على فَخِذِي؛ فثَقُلَتْ علَيَّ؛ حَتَّى خِفْتُ أَن تُرَضَّ[1] فَخِذِي؛ ثُمَّ سُرِّيَ عنه؛ فأنزل الله عز وجل:{غيرُ أُولِي الضَّرَرِ}.

وفي رواية أبي داود قال:.....فقام ابن أم مَكْتُومٍ -وكان رجلاً أَعمى -لَمَّا سمع فضيلة المجاهدين؛ فقال: يا رسول الله! فكيف بمن لا يستَطيع الجهاد من المؤمنين ؟"

فلمَّا قَضَى كلامَه؛ غَشِيَتْ رسولَ الله{ε}السَّكِينَةُ[2]؛فوَقعَتْ فَخِذُهُ على فخذي؛ ووجدتُ من ثِقلِها في المرة الثانية -كما وجدتُ في المرة الأولي-ثم سُرِّيَ عن رسول الله ε؛فقال :" اقرأ- يا زيدُ. "

فقَرأْتُ:{لا يستوي القاعدون من المؤمنين}؛فقال رسول اللهε:{غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ...} الآية كلها. قال زيد: أنزلَها اللَّهُ وَحْدَها. فَأَلْحَقَها. والذي نفسي بيده؛ لَكَأَنِّي أَنظُرُ إِلى مُلْحَقِها عِنْدَ صَدْعٍ في [3] كَتِفٍ ».

وفي أخرى له وللنسائي بنحوها؛ قال زيد **τ**: "وقلمي رطب ما جف؛ حتى غشي النبي εالوحيُ؛ ووقع فخذه على فخذي؛ حتى كادت تدق من ثقل الوحي؛ ثم جلي عنه؛ فقال لي: " أكتب يا زيد **{غَيْرُ أُوْلِي الضرر}**[4] » .

ففي هذا الشاهد؛ كان التفسير القرآني متفرداً؛ حيث لم تكن للنبي مشاركة عملية فيه؛ وذلك لوضوح الجملة التفسيرية التي لا تفتقر إلى تعقيب؛ وكأن هذا النوع يمكننا تصنيفه تحت بند: < **تفسير المادة القانونية** >

---

[1] يرض : الرض : شبه الدق والكسر من غير إبانة.

[2] السكينة : فعيلة من السكون ، والمراد بها : ما كان يأخذه ε عند الوحي من ذلك.

[3] كتف : الكتف : عظم كتف الشاة العريض.

[4] أخرجه أحمد(184/5). و«البخاري» (30/4). و«الترمذي» (3033). و«النسائي» (9/6)

***

النمط الثاني: تفسير مع التنزيل

وكما قلت-آنفاً: إن التفسير ظاهر بيانية حركية؛ تضفي جمالاً وروعة في البيان؛ والقرآن قد صبغ أسلوبه بهذه الظاهرة؛ فكانت آياته فيه؛ تمنح البيان حياة ما بعدها حياة. وفي القرآن:{لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا[1]}أي: **عاقلاً**. وفيه استعارة مصرحة بتشبيه العقل بالحياة. أو مؤمناً: بقرينة مقابلته بالكافرين؛ وفيه استعارة مصرحة لتشبيه الإيمان بالحياة؛ ويجوز كونه مجازاً مرسلاً؛ لأنه سبب للحياة الحقيقية الأبدية[2] "

ويمكننا استخلاص إشارة قرآنية منها: بأن التفسير لم يقرر في التنزيل؛ إلاّ ليكون سبباً في بعث الحياة؛ في الجمل القرآني البيانية؛ وهو إحدى المحطات الحيوية في البيان؛ ومواضعه في القرآن كثيرة؛ مما يؤكد على ذلك الطور في ظاهرة التفسير.

وللتقرير . أنقل بعضها -مع التحليل والتوضيح.

الأول: تفسير الهلوع؟

ومن التفسير البديع المعجز؛ حرف الهلوع؛ في قوله تعالى:{إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعا [3]}فقد جاء تفسيره مع التنزيل في السياق ذاته. بقوله:{إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعا}. فعن عكرمة قال:

---

[1] [يس/70]

[2] تفسير الألوسي - (ج 17 / ص 31)

[3] [المعارج/19-21]

سئل ابن عباس: عن الهلوع؟ ". فقال: هو كما قال الله تعالى:{إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً }.

و عن الحسن أنه سئل عن ذلك -أيضاً ؟ فقرأ الآية. وحكى نحوه عن ثعلب؛ قال. قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: "ما الهلع ؟ " فقلت: "قد فسره الله تعالى؛ ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه." يعني: قوله تعالى: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعا }.

فهذه الشريحة من الأئمة ليمثلون صنف الألمعي؛ وقد عرف بقول أحدهم:

الأَلْمَعِيَّ [1]: الذي يظُنُّ لك الظ ... نَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا.[2]"

لكن المتلقين للخطاب -كما أسلفنا-من بني البشر؛ ليسوا سواءً؛ فهم أصناف متفاوتون في فهم المراد؛ فهناك الأَلمعي؛ وهناك ما سواه. ومن ثم؛ يبقى تفسير القرآن، يؤدي مهمةً لغير الأَلمعي فيما خفي معناه-عند العامة. أضف إلى ذلك؛ أن (هَلوعاً)يعني ضَجوراً- بلغة خثعم.[3]

وليس كل العرب - بما فيهم القرشيّون-يعرفون معناها -كما الخثعمي-فجاء التنزيل بصورة حركية بديعة؛ ففسرها بجملتين متناظرتين في الأسلوب؛ مع تصوير حالتين، تعتري الإنسان؛ ومن ثم؛ رفع من شأن هذا الحرف الخثعمي؛ وجعله في مصاف الأفصح في البيان. **ويبقى السؤال : لماذا جيء به، ومعه تفسيره؟**

---

[1] **والأَلْمَعِيُّ**: الذكيُّ المتوقِّد. قال أوس بن حجر:

الأَلْمَعِيَّ الذي يظُنُّ لك الظ ... نَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا

نصب الأَلْمَعِيَّ بفعل متقدِّم . الصحاح في اللغة (2 / 149)

[2] تفسير الألوسي (ج 21 / ص 278)

[3] اللغات في القرآن (ص: 7)

ذلك؛ أن التفسير يمثل حركة حياتية؛ ويوصل الفكرة إلى المخاطبين جميعاً؛ دون استثناء. لأنه نزل للناس كافة؛ وهم متفاوتون في الذكاء والاستيعاب؛ فهنالك الألمعي؛ وهناك سواه. فالألمعي: يفقه التفسير القرآني؛ ويرفض أن يفسر ما فسره التنزيل - حفاظاً على جماليته وروعته-بينما سواه؛ قد يصعب إدراك المعنى عليه؛ فيضطر إلى اللجوء لتفسير المفسر-كما يفعل الباحثون بعد تفسير الفكرة؛ أحياناً؛ فيقولون: وبعبارة أوضح.

وحي البيان:

وقد لا يكون هذا التفسير واضحاً عند آخرين؛ من زاوية جِبلية أخرى؛ فتجئ السنة لتزيد في تفسيره أكثر؛ وتجلّي ماهية أخرى في سير الجبلة الإنساني؛ فقال رسول الله ε:"**شر ما في رجل: شُحٌّ هالع؛ وجبن خالع**[1] **".**

ثم عمل المفسرون على هذا النهج؛ فزادوا -توضيحاً، وبياناً. ففي هذه الآيات قد تنوعت أساليب التوضيح. فقال ابن كثير[2] :" يقول تعالى- مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة:{ إِنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعا }. ثم فسره بقوله:{إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعا }أي: إذا أصابه الضر فزع، وجزع؛ وانخلع قلبه-من شدة الرعب؛ وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير{وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعا }أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها "

[1] المسند (320/2) وسنن أبي داود برقم (2511).

[2] تفسيره (8 / 226)

ويسوق الآلوسي في تفسيره بيانا آخر فيقول: " **الهلع :** سرعة الجزع عند مس المكروه. وسرعة المنع عند مس الخير. من قولهم : ناقة هلوع: سريعة السير[1] "

الثاني: تفسير (الْقَيُّومُ): في{.....الْقَيُّومُ : لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ[2] }

قال البيهقي في شرح الأسماء الحسنى:{لا تأخذه سنة ولا نوم}:تفسير للقيوم.[3] "

و(القَيومُ) يعني: القائم بلغة قريش. وكان عمر بن الخطاب يقرؤها: (الحَيّ القيّام)[4].

وهي من صيغ المبالغة -على وزن فيعال وفيعول-من صيغ المبالغة-وهي ليست من الأوزان المشهورة؛ وهي من القيام؛ ومن معانيها : القائم في تدبير أمر خلقه في إنشائهم وتدبيرهم؛ ومن معانيها: القائم على كل شيء؛ ومن معانيها : الذي لا ينعس ولا ينام؛ لأنه إذا نعس أو نام. لا يكون قيّوماً؛ ومن معانيها : القائم بذاته؛ وهو القيّوم جاء بصيغة التعريف لأنه لا قيّوم سواه على الأرض حصراً[5]."

ويبقى تفسير التنزيل؛ هو المعبر على صفة الذات الإلهية بكامل الدقة؛ وبغيره؛ لا يكون مناسباً أبداً؛ وهو تفسير سلبي؛ يختزل فيه تفسيرات؛ قد تركت لوحي التبيين؛ حتى يلعب دوره في العملية التفسيرية؛ وبذلك يتحقق التكامل في التفسير. وتأتي السنة لتزيد في التفسير أكثر؛ فشرحت عمل(القيومية)؛ وهو الناشئ عن تلك الصفة؛ وهو

---

[1] تفسير الألوسي (21 / 277)

[2] [البقرة/255].

[3] الإتقان (2/ 194)

[4] اللغات في القرآن (ص: 1)

[5] لمسات بيانية (ص: 32)

تفسير إيجابي. فعن أبي موسىτ قال: قام فينا رسول الله ε بأربع كلمات؛ فقال:" **إن الله لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام؛ يخفض القسط، ويرفعه؛ يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل؛ وعمل الليل قبل عمل النهار؛ حجابه النور- أو النار- لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**[1] "

ويلاحظ. هنا: أن العملية التفسيرية؛ قد حدث فيها تداخل بين طورين مختلفين في الطبيعة التفسيرية: طبيعة إلهية؛ تمثلها كِلمة**{لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}**. وطبيعة بشرية؛ تمثلها كِلمة- هي أكثر بياناً: « **إن الله لا ينام؛ ولا ينبغي له أن ينام؛ يخفض القسط؛ ويرفعه**....». وهما وحيان متمايزان-شكلاً وجوهراً. ويبقي دور المفسرين الاجتهادي لغير الألمعي؛ إذ نختار ما قرره ابن كثير في تفسيره :" {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ }أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه؛ بل هو قائم على كل نفس بما كسبت؛ شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء؛ ولا يخفى عليه خافية؛ دائم القيام بتدبير خلقه في إيصال المنافع ودفع المضار؛ وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء؛ ومن تمام القيومية: أنه لا يعتريه سنة ولا نوم. فقوله:{لا تَأْخُذُهُ}أي: لا تغلبه سنة. وهي: الوسن والنعاس؛ ولهذا قال:{وَلا نَومٌ} لأنه أقوى من السنة[2]."

هذا. وقد فسرت القيومية بحالتين مطردتين :{ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ }

ويظهر وجه التباين بينهما حين نقف على ماهية كل منهما. فالنوم: بديهي التصور. وهو حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ؛ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة؛ بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً. والسِّنة: فتور يتقدم

[1] صحيح مسلم برقم (179).

[2] تفسير ابن كثير (1 / 678) (1 / 678)

النوم؛ وليس بنوم؛ لقول عدي بن الرقاع : **وَسْنانُ أقصدَهُ النُّعاسُ فرنَّقتْ ... في عينِه سِنَةٌ وليسَ بنائمِ**

الإقصاد: أن يصيبه السّهم فيقتله. وهو -هنا: استعارة. أي: أقصده النعاس فأنامه. فرنّقت: دارت وماجت. والسنة: بقيّة آخر النعاس[1]." وعند التأمل؛ يستبين لنا: أن التفسير ظاهرة بيانية حركية؛ وعملية تنويرية لعقل المخاطب؛ ومن ثم؛ يستبين درب السعادة؛ فقد بدئت بتفسير التنزيل ؛فوحي البيان؛ فاجتهاد الحكماء.

الثالث: {.....يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ: يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ.....[2]}

ففي الآية جملتان: جملة تفسيرية؛ وجملة مفسرة **فالمفسَّرة:**(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) **والمفسِّرة :**(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ). **فالألمعي:** ليست الفكرة -عنده- غامضة الفهم؛ بينما سواه؛ يصعب عليه استيعاب معانيها؛ فيضطر أن يلجأ إلى من يفتح له مغاليق الفهم. وفي هذه الحال يكون دور التفسير الاجتهادي. ويلاحظ -هنا- في " يذبحون " أنها جاءت بغير (واو)فهل هي يراد بها البدل من قوله " يسومونكم " أم

---

[1] ويروى عن الأصمعي أنَّه قال: أحسن بيت قيل في فترة الجفون بيت ابن الرِّقاع:

وكأنَّها وسطَ النِّساءِ أعارَها ... عَينَيهِ أَحورُ. من جآذرِ جاسمِ

وَسْنانُ أقصدَهُ النُّعاسُ فرنَّقتْ ... في عينِه سِنَةٌ وليسَ بنائمِ

وأولها: (لولا الحياءُ وأنّ رأسيَ قد عَسَا ... فيه المشِيبُ لزُرْتُ أمَّ القاسِم)

(وكأنّها وَسْطَ النساء أعارَها .. . عينيه أَحْورُ من جآذِرِ جاسِم)

الجآذر: جمع جؤذر . وهي أولاد البقر الوحشية. وجاسم: موضع. والترنيق: الدنو من الشيء .يريد أن يفعله يقال رنقت العقاب لصيدها إذا دنت منه . سمط اللآلي(1/ 150) الأغاني (9 / 355) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين (1 / 39)

[2] [البقرة/49]

غير ذلك؟. قال الفراء وغيره في "يذبحون " بغير واو: أنها سيقت هكذا على سبيل التفسير لقوله "يسومونكم سوء العذاب[1] " كما تقول: "أتاني القوم : زيد وعمرو. فلا تحتاج إلى الواو في زيد. ونظيره :" **ومن يفعل ذلك يلق أثاما: يضاعف له العذاب** [2] "

ويختلف الأمر عند غير الألمعي؛ فيضطر؛ أن يلجأ إلى التفسير الاجتهادي؛ لقلة بضاعته المعرفية؛ فيفسر النص بما بلي:(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) أي: يذيقونكم سوء العذاب ويجعلونه ملازماً لكم لا تفارقونه؛ ولا يفارقكم؛ ويقال: سامه خطة خسف. وأولاه خطة عسف. أي: جعل ولايته خسفاً وعسفاً. ولقد قال عمرو بن كلثوم الفارس العربي:

إذا ما المَلَكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فِينَا

وسوء العذاب أشد سوءاً وأثراً في النفوس؛ ويديمونه؛ لأن "سام " تدل على الدوام؛ ومن ذلك؛ السائمة التي تديم الرعي في الكلأ؛ وبين سبحانه هذا العذاب الهون؛ فقال مفسراً :(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) فهم يعملون على إفناء الذكور؛ وإبقاء النساء.

والتعبير بـ (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) كناية عن العمل على إفنائهم وتخضيد شوكتهم وإبعادهم عن مواطن السلطان؛ وذلك؛ بذبحهم-أحياناً-ووضعهم في مواضع الذل والمهانة؛ والغاية ألا يكون لهم وجود قائم بذاته؛ فهذا مجمل معنى السوم. .

[1] [البقرة: 49]

[2] [الفرقان: 68 - 69]

الرابع: تفسير للمَثل.

وذلك. كما في قوله تعالى:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ :خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ. ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُو نُ [1]}ف:{خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ. ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} تفسير للمَثل. قال ثعلب: وهذا تفسير لأمر آدم؛ وليس بحال [2] ". وفي تفسير البيضاوي[3]:جملة مفسرة للتمثيل؛ مبينة لما به الشبه؛ وهو أنه خلق بلا أب؛ كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم؛ شبه حاله بما هو أغرب منه-إفحاماً للخصم وقطعاً لمواد الشبهة-والمعنى:" خلق قالبه من التراب ." وفي تفسير اللباب لابن عادل: ف{خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ }مفسرة للمثل؛ لوجه الشبه بين المثلين.

ونظيره -أيضاً- قوله:{وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات [4]}. ثم فسر الوعد{ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[5]}. وهذا الوجه هو الصائر إلى الاستئناف؛ فإن المستأنَفَ يؤتى به -تفسيراً به -لمجرد الإخبار بما تضمنه؛ وفي الوجه الثالث نقول :" إنه متعلِّق بما تقدمه؛ مفسِّر له[6].

***

[1][آل عمران/59]

[2]زاد المسير (1/ 351)

[3](353 /1)

[4] [المائدة : 9]

[5] [المائدة : 9]

[6] (4/ 90) (4/ 118)

المراجع

1-الكشاف: المؤلف: محمود بن عمر الزمخشري أبو القاسم جار الله. الناشر: دار المعرفة. سنة النشر: 1430 - 2009

2-زاد المسير : المؤلف: ابن الجوزي. الناشر: دار ابن حزم - المكتب الإسلامي.

3-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية .الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .الطبعة: الأولى، 1415 هـ

4-تفسير ابن كثير . المؤلف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين. المحقق: سامي بن محمد السلامة. الناشر: دار طيبة. سنة النشر: 1420 - 1999

5- تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى. الناشر: دار المصحف . مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة. عدد المجلدات: 9

6-صحيح البخاري:

7- صحيح مسلم (ط. طيبة). المؤلف: مسلم بن حجاج المحقق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة. الناشر: دار طيبة. سنة النشر: 1427 - 2006

8-الترمذي: (الجامع الكبير) المؤلف: الترمذي أبو عيسى. المحقق: بشار عواد معروف. الناشر: دار الغرب الإسلامي سنة النشر: 1996

9-النسائي في الكبرى. سنن النسائي. المؤلف: أحمد بن شعيب بن علي النسائي أبو عبد الرحمن المحقق: محمد ناصر الدين الألباني - مشهور بن حسن آل سلمان. الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

10- أحمد: "مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله" المحقق : شعيب الأرنؤوط وآخرون. الناشر : مؤسسة الرسالة عدد الأجزاء : 50

11- (مسند أبي عوانة)، وهو المستخرج على صحيح مسلم ، للإمام الحافظ أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت: 316)، حققه: أيمن بن عارف الدمشقي ، ونشرته دار المعرفة ببيروت.

12-الحاكم: المستدرك على الصحيحين (ط. العلمية) المؤلف: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري أبو عبد الله المحقق: مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية. سنة النشر: 1422 - 2002

13- السنن الكبرى (سنن البيهقي الكبرى) (ط. العلمية) المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر المحقق: محمد عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية .سنة النشر: 1424 - 2003

14- تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور (ت: التركي) المؤلف: السيوطي.المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية. سنة النشر: 1424 – 2003 عدد المجلدات: 17

15- كتاب الكليات .لأبى البقاء الكفومي .معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ،تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي. عدد الأجزاء / 1 دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - 1419هـ - 1998م. ، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري.

16-موسوعة علوم القرآن. المؤلف: عبد القادر محمد منصور. الناشر: دار القلم العربى – حلب الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م. عدد الأجزاء: 1

18-الإتقان في علوم القرآن .المؤلف : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. عدد الأجزاء : 2

19-معجم المؤلفين. المؤلف: عمر رضا كحالة. الناشر: مؤسسة الرسالة. سنة النشر: 1414 – 1993 عدد المجلدات: 4

20-المحكم والمحيط الأعظم .المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ] المحقق: عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 معدد الأجزاء: 11 .

21-الصحاح في اللغة الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (ت: عطار) المؤلف: إسماعيل بن حماد الجوهري المحقق: أحمد عبد الغفور عطار. الناشر: دار العلم للملايين .

22- كتاب اللغات في القرآن . رواية ابن حسنون المقرئ المصري بإسناده إلى ابن عباس تحقيق: د. توفيق محمد شاهين . الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الأولى – 1995.

23-لمسات بيانية (ص: 32)

24- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي. المؤلف: أبو عبيد البكري الأونبى. المحقق: عبد العزيز الميمني. الناشر: تصوير دار الكتب العلمية. سنة النشر: 1354 - 1935عدد المجلدات: 3

25- الأغاني. المؤلف: أبي الفرج الأصفهاني. عدد المجلدات : 25 مجلد مجموعة في كتاب واحد. الناشر : دار صادر – بيروت.

26- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين. تأليف: الخالديان. تحقيق وتعليق: د. السيد محمد يوسف. الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1965